

في طبيعة الاستيطان في اليمن القديم

د. عبد الله حسن الشيبة

عميد كلية الآداب

يتردد في النقوش اليمنية القديمة عدد من الألفاظ التي احتار الدارسون في ترجمتها، لأن أغلبهم يعتمد في هذه الترجمات على الاشتقاق اللغوي أكثر من اعتمادهم على فهم النص في إطاره التاريخي - الاجتماعي، لذا نرى هذا الاختلاف الواضح في ترجمة كلمات مثل:

(ح و ر)، (ع م ر)، (ع ر)، (ب ك ل)، (ب ض ع)، (ع ب ر)، (ذ ه —————
ب)، ... إلخ.

وفي هذه الدراسة سأحاول - بقدر ما تسمح به النصوص النقشية - أن أقدم ترجمات لمثل هذه الكلمات التي ترتبط في الواقع على فهم النص في إطاره التاريخي - الاجتماعي الاقتصادي - حتى يتمكن من رسم صورة ولو أولية عن الحياة الاجتماعية لهؤلاء الذين كتبوا هذه النصوص. وسأعتمد بالدرجة الأولى على النقش الموسوم بـ RES 4230 A,B مع الاستشهاد بنصوص أخرى عند الضرورة توضح الصورة، التي سأحاول رسمها لهذا المجتمع.

وسبب اعتمادي على النص المذكور يرجع إلى أنه من النصوص التي تحمل بعض تلك الألفاظ التي دار حولها الاختلاف، فضلاً عن أن النص قد نشر منذ مدة طويلة، ولم يحاول أحد إعادة قراءته. فقد نشر لأول مرة عام ١٩٢٧ م،^(١) وعلق عليه موردتمان وميتفوخ،^(٢) وتناوله في أطروحته للدكتوراه بيستون،^(٣) وأعاد جام^(٤) نشره مع صورة له. وحسب علمي فإن أحداً لم يحاول من بعدهما قراءة النص من جديد.

والنقش المذكور مرقوم على مبخرة، صنعت بطريقة غير متقنة، وتعود إلى العصور المتأخرة (عهد شمر يهر عرش ملك سبأ وذوريدان، حوالي القرن الثالث الميلادي) ووزع نصه على ثلاثة جوانب منها. ويلفت النظر في رسمه أن حرف التاء فيه يتطابق في شكله مع مثيله في اللغة الجعزية.

نض النقش

(أ) الجانب الأمامي

- ١- لحي عت / بن / ذبر / أن / هقني / مق طرم
- ٢- و ث م رم / لع ث ت ر / ش ر ق ن / ب ي م / ك و ن / ع ق
- ٣- ب م / ب ب ت / بن / ث أ ر ن / ذ س ل ي ت / و ع م ر
- ٤- ل و ف ي / م ر أ (هم / ش) م ر / ي ه ر ع ش / م ل ك / س ب

(ب) الجانب الأيسر

- ٥- أ / وذ ري دن / ول و ف ي / ع ب د هم و / ل
- ٦- ح ي ع ث ت / بن ب ر أن / ول و ف ي / م أ د
- ٧- ب ت هم و / ش ع بن / ح و ر / ه ج ر ن / س ل ي ت / و
- ٨- أ هل هو / وأرض هم و / ص ر ب م / و ق ي ظ

(ج) الجانب الأيمن

- ٩- وأ ي و ن م / ذ ك و ن / ب ع ش ق ت
- ١٠- و ل ي أ خ ر ن / ق ل م م / و م ق ص م
- ١١- و ب ر د م / و ح ب ر م / و ش ن أ م

يلاحظ في الحجر عدم الدقة عند وضع الفواصل بين الكلمات، وقد وضعنا

خطأ مائلاً (/) في الأماكن التي لم يرد فيها الفاصل . ويرى الخط الفاصل بين (ذب
ر) و (أن) في السطر الأول وهو خطأ ومن المفروض أن يلغى .

وإذا ما نقلنا النص إلى اللغة العربية (الشمالية) فإن النص يعني :

- ١- لحيت ابن ذو برآن ، قدم مقطراً (مبخرة)
- ٢- وثماراً (للإله) عثر الشارق في اليوم الذي عين فيه مشرفاً (وكيلاً عاماً)
- ٣- في مزرعة (السيد) من (قبيلة) ثاران ، سيد (مدينة) س ل ي ت ،
ومستوطنيها .^(٥)

- ٤- من أجل سلامة سيده شمر يهرعش ، ملك سبأ
- ٥- وذو ريدان ، ومن أجل سلامة عبده لـ
- ٦- حيت ابن برآن ، ومن أجل سلامة مروؤو
- ٧- سيهم (الذين) هم من سكان مدينة س ل ي ت و (من أجل سلامة)
- ٨- أهله وبلده أثناء موسم الحصاد والصيف
- ٩- وكروم العنب ، التي في المزارع
- ١٠- وليبعد (الرب عثر الشارق) الضرر والتلف
- ١١- والبرد والسحر و (كل) عدو

نستخلص من النص الوقائع التالية :

في أثناء حكم الملك شمر يهرعش عين رجل لم يكن حراً ، اسمه لحيت وكيلاً
-رئيساً- في مزرعة قبيلة ثاران ، التي كان شيخها صاحب السلطة على مدينة (س ل
ي ت) ومستوطنيها ، وقد تأتي عن هذا التعيين مناسبة تقديم المبخرة والكتابة المنقوشة
عليها . والسبب في تقديمها مع الثمار هو طلب السلامة للملك ولتقدمها ولسكان
مدينة (س ل ي ت) الذين يعملون مزارعين في تلك المزرعة ، والحفاظ على المزرعة

وسلامة كروم العنب فيها.

ومن هنا نرى أن السلم الاجتماعي الذي يتدرج من الطبقة الدنيا إلى الملك، الذي يعتبر المالك الاسمي أو الحقيقي للمزرعة، يشتمل على طبقتين: قبيلة الأشراف وأتباعها في المدينة. وبينهما يقف الرجل الذي قدم المبخرة وأهله، مشرفاً ووسيطاً. وسيكون الحديث فيما يلي عن الأتباع فقط من حيث هم عمال سخرة، وعن استيطانهم المدني.

سيد مدينة (س ل ي ت) هو أيضاً سيد سكانها (ع م ر) -السطر ٣-، اسم المكان فيه (م ع م ر) يعني قطعة الأرض التي تزرع. ويقابله في العربية الشمالية معمر، الذي يقسم بحسب رأي اللغويين العرب القدماء قياساً على المناطق الفقيرة بالمياه، بتوافر الماء والكلاً الكثير. ومن حيث طبيعة الأمر؛ فإن المعنى يشتمل على شيئين: زراعة المكان واستيطانه بملحقاته من المباني وصوامع الغلال والمنشآت المائية وما يشبه ذلك. ونجد لذلك شواهد في اللغة العربية الشمالية، ولذلك يفضل ترجمة الفعل (ع م ر) بعبارة (استعمر الأرض، بناها، استوطنها. . .) وبنفس هذا المعنى تستخدم لفظة (معمر) حتى اليوم في المغرب العربي -وخاصة في الجزائر- بدلاً من (تذكر) التي أوردها أصحاب المعجم السبئي. وعندما نقول أن (عمر) تعني (عاش طويلاً) أيضاً، فإن (أحيى الموات) التي تعني (استصلاح الأرض) تعني كذلك جعلها تحيا. أما الاسيطان -بمعنى الاستقرار- فإن خير تعبير له في العربية الجنوبية -اللغة اليمنية القديمة- هو (م ع م ر) (قبر) الذي يقول عنه صاحب الموعظة (سفر الجامعة: الإصحاح ١٢، ٥) أنه بيته الأبدي (بيت عولم) في العبرية.

إن الناس أنفسهم الذين يرد ذكرهم في السطر ٣ بصيغة (ع م ر) يدعون في السطرين ٦/٧ (م أ د ب ت) (تابعين) للقبيلة ويعتبرون من (ح و ر) (سكان) مدينة (س ل ي ت) وأن الـ (م أ د ب ت) هؤلاء يرد ذكرهم في نقش سبئي متأخر (RES 4194/5)، يتحدث عن أعمال تتصل بالبناء والسقاية وبالزراعة في أرض زراعية واسعة. ويبدو هؤلاء وهم يعملون ضمن القوى (العاملة) التي تقوم بالعمل اللازم، ويحلون محل أفراد القبيلة حيث من المفترض أن يذكر هؤلاء. وعلى كل، لا ينبغي

التفكير إلا بحذر شديد بإبدال الباء من الميم فيما يتعلق بلفظة (م أ د ب ت)، وفي هذا السياق بعلاقة (م أ د ب ت) مع لفظة (أدم) التي تعني عبد،^(٦) وإنما ينبغي التفكير بلفظة (أدب)، ولكن ليس بمعنى العبارة الدارج ذي الدلالة على (التربية والأدب وسواه). فاللغويون والمعجميون العرب يذكرون معنى (دعا)، بهذا الخصوص، إلى الطعام، أو إلى مأدبة عامرة... وماشابه ذلك، وأن اللفظة (مأدبة) لاتدل مع ذلك على (المدعويين) إنما -ولاسيما مع الأخذ بعين الاعتبار ما يضيفه اللغويون من لفظة (إلى الأكل) إلى كلمة (مأدبة) ولفظة ربي - إنما تعني (المطعمين). وهكذا يكون جماعة (مأدبت) من حيث المعنى هم (أرب ي) في اللهجة القتبانية، هنا وفي RES 4194 عمال تابعون (غير أحرار) في الحقل، يخضعون للعشيرة وللقبيلة.^(٧) هؤلاء الأتباع كانوا (سكان مدينة س ل ي ت). ولم يكن من الغريب أن تستوطن القبائل المدن في اليمن القديم، وتضاف في هذه الحالة نسبتهم سياسياً إلى المدينة، ولكن مسؤولية (القبيلة) والإقامة والانتساب إليهما لا يتطابقان دائماً.^(٨)

وفما يتصل بالمسؤولية، فإن ثمة تسميات قبلية متدرجة اجتماعياً هي :

(١) القبيلة التي من مدينة س (ش ع ب ن/ ذ ه ج ر ن/ أ ك ن ط...) كما في النقش CIH 291/2، ويستطيع المرء أن يعرف القبيلة، وفي مثالنا أكانط (هو اليوم ما يسمى كانط في خارف) والعشيرة همدان، إنها قبيلة حاشد إذن.

(٢) قبيلتهم، التي من مدينة س (ش ع ب ن ه م و/ ذ ه ج ر ن/...) الضمير (هم و) على عشيرة السادة. ويمكن استنتاج ذلك، من الاسم الخاص بالقبيلة مثلاً في النقوش RES 4198/2,5، CIH 290/8، CIH 224/2، CIH 292/1,3، إن هذه القبائل تحمل أسماء خاصة تتطابق مع أسماء المناطق التي تسيطر عليها، كما سنوضح فيما بعد. وهي تتبع للعشيرة السيدة. ولا يمكن أن تعتبر، عندما تقرن بأسماء المدن، من سكان المدن، إذ هي العشيرة السيدة للمدينة. ففي النقش RES 4198/2,5 يدور الحديث عن (ب ه ج ر هـ (م و/ ن م ر ن/ و) (ش ع ب هـ م و/ ذ ه ج ر ن/ ن م ر ن) وثمران هو الذي يعرف اليوم باسم بيت ثمران في الجوف.

وهكذا نجد حيث يسود إقطاع المعبد، قبيلة ومدينة الإله أيضاً.^(٩) وعلّمنا النقش RES 4329 أن القبائل لا تسكن دائماً في المدينة التي تُعد تابعة لها. ومركزاً إدارياً لها كما سنرى لاحقاً. إذ يمكن لأفرادها أن يعملوا خارج مدينتهم، بل بشكل عام خارج المدن، عندما يعملون في بناء الطرقات مثلاً. وكانت القبائل قابلة للانقسام ومتحركة، كما يلائمها، من حيث القيام بأعمال اقتصادية محددة، ومن حيث العمل في السخرة، والاشتراك في الحرب عندما يدعوها إلى ذلك داع. مثال ذلك قبيلة بكيل التي كانت مقسمة إلى ربوع (أحياء) وإننا نعرف منها على سبيل المثال حين (ربعين): مرثد بكيل، ربع عمران (شع ب ه م و / ب ك ل م / رب ع ن / ذ ه ج ر ن / ع م ر ن) CIH 95/1،^(١٠) إلى جانب ريدت (شع ب ن / ب ك ل م / ر ب ع ن / ذ ر ي د ت) CIH 314/2 وهي ريدة عمران.^(١١) ولكن عندما يعكس المرء الصيغة في إحدى الكتابات القتبانية RES 3878 ويقرأ (مدينة قبائل الإله عم) فإن من المحتمل أن يفكر المرء بمعسكرات شعوب عاملة، شبيهة بالمعسكرات الإسلامية أو بمدن الجيوش (الفسطاط، البصرة، الكوفة) التي اندمجت فيها القبائل.

(٣) قبيلة س، اسم القبيلة يتطابق مع اسم المدينة (ن ب ط ع ل ي / م ل ك / ك م ن ه و / و ك م ن ه و) نبط على ملك كمنا، وقبيلة كمنا، (كمنا في الجوف). هذه القبيلة تكون مع ضواحيها وسكانها مدينة - مملكة، CIH377/2 RES3945/17 كانت تعيش في ظل دول مجاورة كبيرة، ومثلها مدينة هرم (في الجوف بالقرب من الحزم) RES3945/17، وكذلك مدينة نشان (السوداء في الجوف أيضاً) RES3945/15 التي كونت لها لمدة وجيزة مملكة كبيرة، كانت لها ممالك مدن، فالدولة والمدينة والشعب كانوا يحملون الاسم نفسه (س ملك نشان ونشان)^(١٢) يلاحظ هنا أن اسم الشعب - القبيلة - يذكر في المركز الثاني، ولكن عند ذكر الإله المركزي فإن الشعب يحتل المركز الثالث. ومثل ذلك نجد اسماً واحداً يجمع بين المكان (هو حصن) والقبيلة (شع ب) والعشيرة (ب ن و)، وهو اسم غيمان الواقع على بعد نحو ٢٠ كم جنوب شرق صنعاء، لأن هؤلاء الثلاثة يكونون المجتمع المشترك، بحيث يغطي الاسم الواحد الثلاثة معاً. بما فيها المكان: ذ غ ي م ن = الذي من غيمان، شع ب ن / غ ي م ن = قبيلة غيمان، ب ن ي / غ ي م ن = عشيرة غيمان،

CIH30/2 CIH67/21-22, IR22/1, Ja567/2,26, Ja577,7,11, Ja626/3,8
وفي اللغة التجرية يعني «عد» القبيلة والموقع والقرية.

وتخبرنا الكتابة CIH601 عن كيفية نشوء قبيلة المدينة في وسط المملكة السبئية. وكانت مدينة صرواح قد أسسها الملك السبئي (يكر ب ملك وتر بن يدع إيل بين) مع أشرافه وقبيلة (ي ه ب ل ح)، وبعد جيلين نجد هناك قبيلة صرواح (ش ع ب ن / ص ر و ح) التي كما يبدو نشأت مع اندماج سكانها القدماء مع سكانها الجدد.^(١٣) وهي قبيلة لم يكن لها كامل الحق - في أن تكون كغيرها من القبائل - ولكن عند فرض الضرائب عليها كان لها مجلس يمثلها، أي أنها كانت تتمتع بحق التقرير المستقل في شئونها الضريبية. وكانت تعيش في مدينة يسكنها إقطاعيون من علية القوم بإدارة مجلس المسود. وبعد بضعة قرون نعر على اسم هذه القبيلة ثانية في نقش وجد في المدينة CIH398 وتحمله عشيرة (ب ن و)، بشكل يناسب العصر في سماته الإقطاعية، وترأسها عشيرة قيادية - رئاسية (ب ن و / ع ن ن) فهنا نقرأ في السطر ١٨ (ش ع ب ه م و / ص ر و ح). وكان للعشيرة امتيازات داخلية خاصة وصلاحيات واسعة، وكانت الرئاسة - الزعامة - وراثية فيها.^(١٤)

ويمكننا أن نعتبر القبائل التي ذكرناها هنا ومن يشبهها من القبائل الأخرى وحدها قبائل المدن بالمعنى الضيق. إن صياغة الاسم من دون أداة الإضافة - التي يعبر عنها اسم الإشارة ذ-، أي أن اسم المدينة واسم القبيلة متطابقان فيها، وهذا يعني أن اسم القبيلة ليس نسبياً يقوم على القرابة، وإنما على صلة - بالمكان - المدينة. وبذلك يمكن لنا أن نرى أن المسؤولية القبلية ومكان الإقامة يتطابقان في هذه الحالة ويصبحان أمراً واحداً. وأن هي باستثناء صرواح أسماء لقبائل محلية، لم يتطور وضعها فتصبح أسماؤها أسماء لممالك كبيرة.

(٤) أسماء القبائل المهيمنة التي عرفت دول اليمن القديمة بأسمائها، وهي سبأ ومعين وقتبان وحضر موت وأوسان، وكلها ذات دلالة قبلية واضحة. ثلاثة منها تسمى نفسها قبيلة س: ش ع ب ن / أ و س ن RY533/6, Ja629/31 ش ع ب ن / ق ت ب ن RES3566/3,8, RES3879/2, RES3854/1, ش ع ب س م / م ع ن

2/RES3025, 3/RES3050, RES2954 أما سبأ فقد اتخذت هذه الدلالة فيما بعد، ويبدو أنهم كانوا يتخذون مقراتهم الأساسية في عواصم الممالك، مع أنهم لا ينسبون أنفسهم إليها باستثناء يثل. وتبدو مكائنتهم القيادية فيها في الوثائق أحياناً بشكل واضح، كما في الوثيقة RES3910/2 حيث نجد العبارة (ش ع ب ن / س ب أ / أ ب ع ل / ه ج ر ن / م ر ب / وأ س ر ر ه و = قبيلة سبأ، سادة (أ ب ع ل) مدينة مأرب ووديانها (الخصبة). وتدل كلمة أبلعل على أن السبئيين هم الذين يستثمرون الحقول المجاورة وهم الذين يديرونها، وهم الذين يشكلون في المدينة الطبقة المتميزة. ونجد في الوثيقة RES3566 القتبانية ما يشبه ذلك أيضاً، حيث يرد بصيغة قاطعة أن القبيلة القائدة قتبان تستوطن العاصمة تمنع والمناطق الخصبة (و ذ ب ن / ش ع ب ن / ق ت ب ن / ذ ت م ن ع / و ذ أ س ر ر ن)، أما القبائل المنضمة إليها لإقامتها محددة في الأراضي الزراعية والمراعي. وليست لهذه القبائل أية صلة بالمدينة الرئيسية.

ويختلف الأمر بالنسبة لعلاقة القبيلة الرئيسة في معين. فنجد أحياناً التعبير عن ذلك على الوجه التالي: قبيلة معين ويثل (ش ع ب ن / م ع ن / و ي ث ل) كما في 2/RES3025، واسم القبيلة هو اسم الدولة كذلك، كما نجد في اللقب المعروف (ملك معين)، أما يثل (تسمى براقش اليوم) فهي اسم المدينة الرئيسية الثانية في المملكة، ومنه نستطيع أن نقول أن قرنا و (العاصمة المعينية) لم تكن سوى مقر للقبيلة معين، لذلك يحتفظ حتى الآن باسم معين. وانطلاقاً من هذه المدينة العاصمة تم استيطان المدينة الثانية يثل التي أعطت اسمها لسكانها. ومن كثرة ذكر المدينتين معاً ولا سيما في النقوش الملكية (م ل ك / م ع ن / و م ع ن / و ي ث ل) كما في 3-2/RES2980، 4a/RES2952 مثلاً، أو ذكر آلهة المدينتين (أ ل أ ت / م ع ن / و ي ث ل) كما في 7/RES2975، 7bis/RES2980، نخلص إلى أن تطور استيطان المدينتين معاً أدى إلى نشوء قبيلتين قائمتين توزعتا على المدينتين.

وهنا شيء أساسي آخر ألا وهو صياغة اسم القبيلة باستخدام ضمير الملكية (قبيلته معين) بحيث يختلف تماماً عن أسماء القبائل ذات المستوى نفسه. مثل الذي مر بنا عند الحديث عن المدينة - المملكة كمن التي تشكل نسبياً مجتمعاً صغيراً مغلقاً

مع العشيرة والقبيلة، نجد فيه طبقة أعلى وأخرى تنضوي تحتها، ونفس الشيء يقال عن العشيرة والقبيلة غيمان. أما مملكة معين فإنها تذكر هنا، كما في أحوال أخرى، ببداياتها، وتحتفظ كذلك بأصولها القديمة.

ونجد قبيلة معين بعد قرون من سقوط مملكتها في إحدى الوثائق السبئية من العصر الوسيط CIH609/1,4 حيث تنظم عشيرة سبئية مكان إقامة (قبيلتها معين) في المدن قرناو ويثل وشعوب (...). / وش أم ت/ ذب ن/ ح و ر/ وأ دي م (ت) / ب ن ي/ ذ م ع ه ر م/ وش أم ت/ وج دي ت/ أب ي ت ه م و/ وذق ن ي و/ ب ه ج ر ن [ق ر] ن و/ و ي ث ل/ وش ع ب م أ). مكان الإقامة (المستوطنة) هذه: أرض ويوت مستأجرة بالوراثة ويديرها شيخ العشيرة الذي يتحمل عبء المسؤولية الكاملة. وكي تنفذ عقود الشراء كان على العشيرة والقبيلة ضمان ذلك وراثياً، بما تملكه من بيت ونخل وأرض وعبيد وإماء. وزيادة على ذلك تتكفل بدفع ثمن الشراء مع الفائدة (أجرة الأرض) وضريبة من نوع خاص لصالح الجيش. وشيخ العشيرة هو الذي يوقع العقود، وملك سبأ وذو ريدان يوقع على سند التمليك. (١٥) وهكذا نرى قبيلة معين وقد انحلت في مملكة سبأ وذو ريدان الكبيرة. فهي تقوم بأعمال السخرة والخدمة تحت الحكم السبئي في المدن المذكورة في الحقول الواقعة ضمن أملاكها، وقد سقطت سياسياً واجتماعياً. ولكن الصيغة الخاصة باسم القبيلة لازمتها كما يبدو، طوال تاريخها.

إن لفظنا (ح و ر، ح و ر و) أي: ساكن، سكان، التي تقابل العبارات اليونانية Katoikoi, Katoi Koynes، وتعني لفظة الفعل الثلاثي حور في الكتابات اليمنية القديمة (سكن، استوطن). ويشق منه الفعل المضعف الدال على المبالغة بمعنى سكن، أسكن (ي ح و ر/ س ب أ/ ب ه ج ر ن/ ن ش ن) كما في RES3945/15. ويبدو لي أن ذلك يعني السكن في المدن (أ ه ج ر، المفرد: ه ج ر ن)، مع الانتباه إلى أن ترجمة هذه الكلمة التي تعني (مدينة) في النصوص المتأخرة يجب أن لا يؤخذ بها من دون قيد أو شرط. ويقابل ذلك في العربية الشمالية: حار (رجع)، حور (أرجع). وقد يفهم منها كذلك إلى جانب هذا المعنى ما يدل على تغيير

الحال أحياناً. وفي الجعزية يعني حورا (عاد) إذن المعني هو: أرجع، من التجوال في المراعي، مع المواشي نهاراً، للراحة مساءً في المخيم، تعني اللفظة في مناطق البدو الإرجاع القسري إلى حيث الإقامة غير الدائمة.

وإننا نجد في الوثيقة CIH609/1 ماكتب (مستوطنو) سكان) مدينة قرناو (وشعوب)، وفي سطر ٣ ومابعده (ش أم ت) المشتري، أي المستأجرين بالوراثة. وإلى جانب قبيلة بكيل، وريع (حي) عمران (ش ع ب هم و/ ب ك ل م/ ر ب ع ن/ ذ ع م ر ن) المذكورين في CIH95 نجد في CIH102/4 (أ ب ك ل ن/ ح و ر و/ هـ ج ر ن/ ع م ر ن) البكيليين سكان (مستوطني) مدينة عمران. وكذلك القبيلة التي تسكن مع صرواح في المدينة - التي سبق ذكرها - تبدو، وهي تقيم فيها ولها أملاك وعمل تؤديه (حور وبكل)، قارن كذلك نقشنا سطر ٧ حيث نقرأ: . . . ب ن/ ح و ر/ هـ ج ر ن/ س ل ي ت) سكان مدينة س ل ي ت، هم الذين كان عليهم أن يقدموا العمال للبلاط وكذلك للمزارع الخاصة بالعشيرة (أهل هـ و/ وأرض هم و) سطر ٨ من النقش. وهكذا نرى أن الحديث هو عن القبائل. أما في النقش RES3945/16 فإننا نجد أن الملك السبئي الظافر كرب إيل وتر يفرض على ملك نشان توطين (يحور) السبئيين في عاصمته ذاتها (ك ذ/ ي ح و ر/ س ب أ/ ب هـ ج ر ن/ ش ن)، وطبعاً موقع هؤلاء هو موقع السادة على المغلوبين.

وفي سياق التوطين ترد عبارة (ب ك ل) التي تعني في الواقع: أرض مضمومة (ملحقة)، أو إعطاء منطقة خاصة بالمدينة لمستثمرين يديرونها ويستغلونها بإشراف القبيلة السيدة لمصلحة الدولة، مرة لقبيلة تنضم ضمن الاتحاد السبئي، ومرة للمغلوبين (. . . ل س ب أ/ و ب ك ل/ هـ ر و ح ت/ هـ ر و ح/ أ و د/ هـ ج ر ن/ ش ق م) CIH610/1-2 (. . . / هـ ر و ح ت/ ش ق م/ ع د/ أ ل ن/ أ و ث ن ن) CIH637/2-3. وبهذه العملية تم الاختلاط (بين سكان المدن القدماء وبين المستوطنين الجدد) على حد تعبير روستوفزيف. (١٦)

ويعني فعل (ب ك ل) في صيغة الثلاثي المجرد: الحصول على أرض أو منطقة في المدينة كمستوطن، واكتساب ملكية مع واجب العمل فيها، ويشمل ذلك القيام

بعمليات البناء CIH610 CIH399 ونجد لفظة (ب ك ل) بمعنى اسم الجمع (اسم الجنس) (الخاضعين) منذ زمن قديم في المدينة التي احتلها السبثيون نشق (البيضاء في الجوف) CIH349, RES3945/4,17. ولقد كان الآثارى والجغرافى الهمدانى على علم بأن جماعة (ب ك ل) يقيمون في نشق، وأن لاسم قبيلة بكيل علاقة بالجدد نفسه التي تتخذ من عمران مركزاً لها، وهو مقر عشيرة مرثد وأنه ليمكننا أن نستخلص من تتبع لقب القبيلة التي يذكرها مايلى: إن عائلة نشق تنسب إلى بكيل، وقد رحلت إلى عمران بعد ذلك.^(١٧) وهذه هي الطريقة التي كانت تتبع في تفسير الظواهر التاريخية والآثارية القديمة. ولكن من المستبعد أن يكون الهمدانى قد قام بالتأثيل، مع أنه يحق للمرء أن يفعل ذلك. وأن لفظة بكل في اللغة العربية الشمالية مع الفعل إبتكل، وفعل تبكل بمعانيها (غنيمة، غنم، تعامل بالشيء وكأنه غنيمة) تناسب جداً معنى (فئة - طبقة - الخاضعين)، التي يعبر عنها بلفظة (ب ك ل) التي لانعرف حركاتها حتى نلفظها بشكل صحيح. وإنني لأميل إلى الاعتقاد بأن قبيلة بكيل القوية التي تخضع لعشيرة مرثد، وهي التي خرج منها كذلك الملوك، قد أخذت اسمها من أولئك (الخاضعين) الذين انبثقت عنهم.

وكما أشرنا، فإن المدينة التي تعيش فيها القبيلة لم تكن دائماً هي نفس المدينة التي تتمركز فيها القيادة القبلية السياسية والعسكرية. وتخبّرنا الوثيقة القتبانية RES3507A/1-2 عن طريقة الاتصال بين مقر إقامة القبيلة ومركز قيادتها. فالقبيلة هنا تعيد بناء البرج الخاص بمدينة (ه ر ب ت) (هي حنو الزرير في وادي حريب) وهو الذي يتقدم سور المدينة، بينما كانت إقامة القبيلة في مدينة (س ٣ و م) (يعرف الموقع اليوم باسم حصن القدم ويقع في عزلة السوا، ناحية المواسط بالحجرية)، (ش ع ب ن / ذ ه ر ب ت / ح و ر / ه ج ر ن / س و م / ب ر أ و / س و ث ر / و ش ق ر / ذ ن / م ح ف ذ ن / ي ح ض ر / ذ م / ب ش ه د / ج ن أ / ه ج ر س م / ه ر ب ت).

واللفظة المستعملة هنا في الوثيقة والتي ترجمناها بعبارة (مدينة) هي لفظة (ه ر = هَجَر). إنه يحق لنا، وحتى تظهر في النقوش اليمنية القديمة كلمات أخرى، أن نتصور نماذج للمدن مختلفة من مثل: بوليس polis (مدينة)، على الأقل فيما

يتصل بالاتساع، ذلك أننا لانعرف إلا القليل عن قوانين هذه المدن اليمنية، وكذلك كومي Kome (قرية)، ينطبق عليها كلها اسم هجر. إذن: علينا أن نفكر في هذا الصدد بحواضر ملكية مثل: مأرب، تمنع، قرناو، شبوة، ومراكز إدارية مثل: صرواح، صنعاء، نشق، يثل، عمران، أكانط... إلخ. كانت كلها محصنة، كما نفكر كذلك بمدن الأرياف، وربما كانت (س^٣ و م) واحدة منها، وبتجمعات زراعية وقرى، حيث يهدد الأرض المزروعة رمل الصحراء الزحف، فضلاً عن غزو القبائل المتبدية، ولم تكن بالتأكيد بدون حماية. ومازلنا نبحث في الوثائق الكتابية عن اسم ذي دلالة على مدن الريف، أو حيث يتمتع السكان بحق الملكية دون حرية سياسية Perioiko كما كان الحال في أسبرطة مثلاً، ولكن دون طائل.

وقد وردت في العهد القديم مثل هذه التسميات الدالة على المدن، بحسب أحجامها في فلسطين،^(١٨) وربما تستطيع أن تغني معلوماتنا عن ظروف الاستيطان في اليمن القديم، فتتقدم خطوة إلى الأمام في هذا المجال. فإلى جانب المدن المحصنة المسماة (عريم) ترد في العهد القديم تسمية (بنات المدن) بنوت هاعير أيضاً، أي المدن الصغيرة التي تتبع ما يسمى (عريم)، كما يتبين مثلاً في: سفر العدد: أصحاح ٢١ (٣٢، ٢٥)، وسفر القضاة: أصحاح ١١ (٢٦)، وسفر يشوع: أصحاح ١٥ (٤٥). وترجم التوراة السبعينية Septuaginta اليونانية لفظة (عريم) العبرية بعبارة بوليس Polis (مدينة) ونفس الشيء أيضاً في الترجمة العربية. أما (بنات المدن) التي ترد مثلاً في سفر يشوع: أصحاح ١٥ (٤٥)، وسفر العدد: أصحاح ٢١ (٣٢) فتترجمها بعبارة Kome (قرية)، وفي سفر العدد: أصحاح ٢١ (٢٦) بعبارة Sygkyroysai ayte (المجاورة) وفي سفر القضاة: أصحاح ١١ (٢٦) بعبارة dria. وهذه اللفظة اليونانية الأخيرة التي تعني (حدود) إن هي إلا عبارة عن تسمية لـ(منطقة)، حيث تعبر اللغة اليمنية القديمة عنها غالباً بالمصطلح الإداري (بض ع) التي ترجمها أصحاب المعجم السبئي بـ(أرض تابعة لمدينة). إذن إن (بنات المدن) كانت تقع على أطراف المدينة، على حدود، بجوار المدينة.

ويرد في سفر يشوع: أصحاح ١٥ (٤٥) كذلك عبارة حَصِيرِي بالعبرية التي

ترجمها التوراة السبعينية بعبارة Epayleis اليونانية ، إنها تمثل المزارع في الريف ، وفي الترجمة العربية (قراها وضياعها) وفي اللغة اليمنية القديمة يتطابق مع هذه العبارة لفظة (ب ي ت ، ب ت) . وترجمت التوراة السبعينية العبارة العبرية الواردة في سفر صموئيل الأول: الأصحاح ٢٧ (٥) عَار هَسَّادِي بعبارة xn miaton psleon tonkot agron (مدينة ريفية) . إن تحديد تسميات المدن على هذه الشاكلة -بوساطة تركيب المضاف والمضاف إليه- لا تعرفه اللغة اليمنية القديمة حسب علمي .

ولكن الكتابات اليمنية تعرف ذكر المدن ومناطقها ، أو بالأحرى تذكر منطقة كذا وكذا (وهب ع ل / ن ش ق م / وب ض ع هـ /) RES3945/14 ، (. . . / وك ل / ذ ق ن ي / ب ب ض ع / . . . / وك ل / أه ج ر هـ و / . . . / وأ ع ر ر هـ و / وأ س ر ر هـ و / و م ر ع ي ت / أه ج ر هـ و) RES3946/8 . وهذا يعني أنه ينبغي علينا أن نبحث في اليمن القديم أيضاً عن مدن من الدرجة الثانية ، وعن قرى ومزارع محصنة ، علينا أن لانتعتبر كل مايرد في الكتابات تحت اسم (هجر) مباشرة (مدينة) ، أو يتطابق مع بوليس في اليونانية ، والأمر بحاجة إلى التفكير الطويل في ماهية الاستيطان كذلك عند المقارنة مع اللفظة الجعزية هجر ذات الدلالة القرية . ويجب على المرء من ناحية أخرى أن لا يعتقد بأن اليمن القديم كانت تقوم فيها الأكواخ والقرى فقط ، فالخرائب قد عثر فيها على نقوش تتحدث عن مدن زاهرة .

ولكن يبدو أن ثروة اللغة اليمنية القديمة كانت تفرق بين تسميات مدن الجبال التي يصعب الوصول إليها ، والتي كانت تتكون من حصون شيوخ القبائل وأتباعهم ، ثم تطورت إلى حصون عسكرية أو إلى مراكز للعبادة ، وبين المدن الواقعة في الوديان ، حيث الطرقات والمجاري المائية . ولعل هذه كانت قد نشأت من مستوطنات محصنة ، ثم مالبثت بعد ذلك أن ضمت إليها سوقاً وخاناً لاستقبال القوافل التجارية ، ومعبدًا . . إلخ . أما الألفاظ الدالة عليها فهي بصيغة التعريف : عرن (بتشديد الراء) أو بالأحرى هجرن التي كان الحديث عنها .

وأما مايتعلق بالناحية الآثارية فإن الفائدة تنحصر بأخبار الرحالة التي تعد فقيرة بمعلوماتها وضمنية بشكل عام . واستناداً لأوصاف هاليفي Halivy^(١٩) تبدو المدن

التي اندثرت من على سطح الأرض كما لو كانت حصناً أو تحيط بالحصن وتقع على أطرافه، وقد بقيت منه أجزاء غالباً مماثل السور وبقايا الأبنية وبعض الكتابات والألواح. وذلك لأن المقاييس التي يذكرها هالي في لا يمكن أن تنطبق على غير الحصون، ويستحيل أن تكون مناسبة لوصف مدن في أهمية قرناو (معين)، نشق (البيضاء)... إلخ. وهكذا يصف معين وكأنها خربة جائمة على هضبة حصينة، طولها ٢٨٠ متراً، وعرضها ٢٤٠ متراً، ويثل (براقش) بمساحة أصغر، ولكنهما تحتويان كلاهما على ألواح عليها كتابة ناقصة داخل المدينة وخارجها. ومدينة هرم تمتد على هضبة بطول ٢٥٠ متراً وعرض ١٨٠ متراً.^(٢٠) ولكن سرعان ما تتضح الصورة عندما يقع المرء على ملاحظاته عن صرواح: إنها خربة واسعة ذات حصن يقوم على هضبة مقابل الخرائب. أو بعبارة أوضح عن حصن غردان حيث يقول: قصر... جائم على هضبة تحيط بها خرائب مدينة قديمة.^(٢١) وعند البيضاء (نشق) يجد نفسه مضطراً للملاحظة أن الخربة على عكس مارآه في أماكن أخرى، لاتقع على هضبة وإنما على كومة من الرمال المجتمعة، والقلعة ذات قطر يتراوح طوله بين ٣٠٠ - ٣١٠ متر.^(٢٢) إنها إذن ليست حصوناً على قمم الجبال، مثل ذو مرمر وريام، بل مدن أنشئت في السهل وفي الوادي، واختير موقعها بحيث يكون مناسباً لها لتقوم على هضبة حصينة، وكانت محاطة بسور خارجي.

ومع جلازر Glaser تصبح معلوماتنا أكثر دقة وهي تتعلق بالعاصمة السبئية مأرب،^(٢٣) كما نستطيع كذلك أن نستخلص معلومات أدق من وصف بيوري Bury للعاصمة القتبانية تمنع^(٢٤) ومن صور لأسوارها وأخرى لبوابتها مما له علاقة بالكتابات التي عثر عليها في الأمكنة ذاتها. وكانت المدينتان تقعان على واد كبير، وهما وادي ذنة، ووادي بيحان.

وكما يوضح جلازر، فإن مأرب كانت تحتل مساحة قدرها بنحو كيلو متر مربع، وقد نوه إلى وجود كومة كبيرة في الجزء الشرقي من المدينة القديمة حيث تقوم اليوم قرية بهذا الاسم. وإنني أتوقع متفقاً في ذلك مع جلازر أن تكون القلعة التي هي مركز العاصمة اللاحقة ومنافسة صرواح في هذا الموقع.

وفي تمنع نجد بقايا السور الجرانيتية قرب الطرف الأيسر لوادي بيجان الذي يتجه مساره من الجنوب الغربي إلى الشمال الغربي ، وهي باتجاه شمال غربي تقريباً . وعلى بعد حوالي ٣٠٠ متر باتجاه الوادي يقوم بيت حجري مهجور مباشرة إلى جانب طرف الوادي ذي الانحدار الحاد . ويمثل هذا البيت بارتفاعه البالغ نحو ٢٠ متراً عن مستوى الوادي أعلى نقطة في مرتفع كحلان ، الذي يبدأ من هذه النقطة بالانحدار في جميع الاتجاهات إلى مستوى السهل المحيط به . نصفه الشرقي مزروع ببقايا الخرائب والبقايا الفخارية ، والنصف الغربي تغطيه كتبان رملية ، تبرز منها في موقع شمال السور وعلى بعد ٢٠٠ متر مسلة سوق شمر المشهورة . ويتفرع من الوادي طريق يقود إلى المدينة ، وكان هذا المكان بالذات مغطى ببوابة ذات أبراج .

وهكذا نرى إذن واستناداً إلى ماساقه الدارسون المحدثون من أوصاف (٢٥) أن مأرب وتمنع مدينتان ينطبق عليهما اصطلاح (هجرن) الذي تحملانه في الكتابات النقشية .

ونستطيع أن نتصور مدن الحصون (عرن) من خلال الكتابات النقشية ومن خلال المصادر التاريخية الأخرى . فالهمداني يقول عن شبام سخيم (شبام الغراس) (وفوق شبام جبل ذي مرمر وهو جبلها ومعقلها) . (٢٦) وكذلك كانت ريام ، التي كانت مركزاً دينياً لهذه المنطقة على جبل أتوه (في أرحب) حيث قدمت الطاعة للإله تألب ، مستوطنة نشأت في الأصل من حصن هو في الواقع حصن - معبد . وكما جاء في تعريف جلازر للكتابات التي عثر عليها في مذكراته ، فإنه رأى في ريام بنائين كبيرين ، أحدهما قصر يعتقد أنه معبد تألب ، أما الآخر فيصفه مستخدماً عبارة قبة . وقد عثر في ذلك (القصر) على الألواح المنصوبة التي عليها كتابات والتي يعود تاريخها إلى عصر الهمدانيين الذهبي ، بصفتهم من سلالة الملوك السبئيين ، وتنبئ عن نجاحاتهم الخارجية . ويعود إلى زمن أقدم بكثير نقشان على الصخر بالقرب من ريام GL1209 GL1210 نقشتا على صخرة . وهذان النصان شاهدان فعليان على وجود قوة دينية ذات سيطرة واسعة كان مقرها في الحصن وتحكم في قبيلة تدعى في النقوش (سمعي) . وإذا كان النص الموسوم GL1209 = CIH338 لم يذكر اسم

ريام ، ولكنه يتحدث في مكانين من النص عن الحصن (عرن : سطر ٧ ، ١٢) ، فإنه استناداً إلى المضمون وإلى مكان العثور على الوثيقة المرقومة لابد أن يكون المقصود بذلك ريام وحدها . وكذلك كان لإله السبئين الرئيسي (أوم = أوام) معبد في حصن (أل و) كما يفهم من النقوش (أل م ق هـ / ب ع ل / أوم / ذع ر ن / أل و) CIH74/3-4 و(ع دي / ذع ر ن / ذأل و) CIH80/9 وهو الحصن الذي كان قائماً على الجبل الواقع جنوب غرب شبام أقيان ، حيث تقع اليوم مدينة كوكبان .

وأما بصدد ورود التسميتين (هجرن) و (عرن) فإن عرن ترد مرات أقل في الكتابات اليمنية القديمة إذا ما قورنت بالمرات التي ترد فيها (هجرن) . ولكننا لانستطيع بناء على ذلك أن نستخلص النتائج بسهولة . فقد تكون المصادفة سبب قلة الشواهد الكتابية المتبقية . ومع ذلك فإنني أميل إلى الاعتقاد بأن تسمية (هجرن) قد شملت الحصون أيضاً في حال توسعها وتطورها إلى مستوطنات بحصنها بحيث طغت على (عرن) وأبعدتها عن الاستعمال . وهذا أمر يستدعي بحث التطور الذي لحق بالحصون فأدى إلى هذه النتيجة ، وهذه مسألة تخرج عن نطاق مانحن بصده هنا .

ويتحدث الهمداني^(٢٧) عن المحافد والقصور اليمنية ، ويجعل بينها المدن المسماة (هجرن) ومن بينها : صرواح ، شبام ، يثل ، قرناو ، وبين هذه أيضاً يذكر : ناعط ، قصر سلحين ، ريام . وإن عبارة محفد اليمنية تعني كما يرى نشوان (قصور الملوك) التي يقيم فيها الحرس الملكي والخدم .^(٢٨) ولكن في النقوش اليمنية التي تعود إلى زمن أقدم بكثير تعني عبارة محفد (برج) وفي الجعزية أيضاً (بيت ، قصر) . وبالنسبة للجغرافي والآثاري الهمداني كانت القلاع والبروج والقصور أهم ما في المدن القديمة وأكثر ما يسترعي انتباهه ، لذا أطلق الكلمتين على كل ذلك ، على الرغم من أنه كان على علم بأن عبارة هجر الحميرية - على حد تعبيره - تعني مدينة .^(٢٩) إذن لقد تصرف على عكس ما ظننت فيما يتصل باستخدام عبارة (هجرن) في النقوش . وبالفعل تصنف النقوش الموسومة بـ CIH290/ CIH292/ CIH295 ناعط بأنها (هجر) (هجر ن / ن ع ط م) وليس بأنها (عرن) ، بينما يتحدث الهمداني في

البداية عن (مصنعة بيضاء مدورة منقطعة في رأس جبل تنين، وهو أحد جبال البون) ثم يذكر بعده (فمن قصور ناعط قصر المملكة الكبير الذي يسمى يعرق ومنها قصر ذي لعوة المكعب وبها سوى هذين القصرين مايزيد على عشرين قصراً سوى أماكن الحاشية)^(٣٠) محاطة كلها بسور، وهذا يعني أنه يتحدث عن مدينة جبلية (عران) نشأت بداية بالحصن ثم تطورت إلى مدينة وبشكل واضح. ولم يتناه إلى علمي شيء عن إمكان استخدام التسميتين: مرة عرن، ومرة هجرن في النقوش اليمنية القديمة، لوصف مكان واحد، مدينة أو مستوطنة.

وحتى نصل أخيراً إلى تأثيل etymology (عرن) و (هجرن) نذكر ركائز سد مأرب كما جاء في النقشين CIH540/21,27, CIH541/69,102 حيث يذكر (عرن) صخرة الأساس أو الأساس الصخري (وك ع دب هو/ ب ن/ ع ر ن/ ع دي/ ش ق ر م = عندما أصلحه من -صخرة- الأساس حتى قمته) الذي يقوم عليه السد، ونجد في الوثيقة السبئية القديمة RES3945 (أعرار) إلى كاتب (أسرار) (بصيغة الجمع) كثيراً، عندما تعدد الأجزاء واحدة بعد الأخرى، أنواع الأرض في البلاد التي تم الاستيلاء عليها: الجبال، المراعي، والوديان. ولكن عندما يكون الحديث في وثيقة سبئية قديمة أخرى CIH418/1,2 عن الطرقات التي تقود من (بوابة عرن عملان إلى بوابة (مدينة) مأرب) (وع ذب ت/ ك ل/ م ن ق ل ت ن/ و ك ل/ م س ب أ/ س ب أ ل ن/ خ ل ف/ ع ر ن/ ع م ل ن/ ع د/ خ ل ف/ م ر ي ب)،^(٣١) فهنا لابد أن يكون المقصود بذلك الحصن، كما هو الحال في الوثيقة المذكورة أعلاه ذات العلاقة بريام، وبخاصة مايتعلق ب(ذومرمر). ومازالت عبارة (عر) مستخدمة إلى اليوم. وإنني لأشك في أن (عرن) تأتي بمعنى (جبل) كما تأتي بمعنى (حصن) حتى فيما يتصل بالحركة الأساسية التي كانت واحدة، وأن معنى (الجبل) كان هو الأصل. وأن ورود العبارة في الألواح المنقوشة ذات العلاقة بخراب السد، أي عبارة (صخرة الأساس). يشير إلى حصن صخري يصعب الوصول إليه، وتستخدم عبارة صخرة (صور) في العبرية بلاغياً بمعنى (ملجأ).

أما مايتعلق بعبارة هجر التي ترد كثيراً في الكتابات اليمنية القديمة وفي الجعزية

(الحبشية القديمة) فإنها تعني في الكتابات الجعزية دولة - بلد، كما تعني (مدينة) وثمة تمييز بين (مدن من قصب) و (مدن من حجر)، إذ تحدد مادة البناء التسمية . وتحل كلمة (هجر) الجعزية في كتاب العهد القديم وكتاب العهد الجديد المترجمين من اليونانية محل (عيمق) العبرية (وادي - وادي ضيق): سفر أرميا: الأصحاح ٨ (٣٠) . وترد (عيمق) العبرانية في سفر الملوك الأول: الأصحاح ٢١ (٢٨) بمعنى مضاد للجبال، كما في السبئية القديمة (أسرار) مقابل (أعرار)، سفر أشعيا: الأصحاح ٤٢ (١١) . ومن خلال المقارنة مع الأكادية (أجر) التي تعني (الحقل الذي يخص المدينة، الحقل المحاط بالقنوات)^(٣٢) نصل إلى مالمقته في الجعزية من تطور دلالي، حيث أصبحت تعني (الحقل الزراعي والأرض) بكل معنى الكلمة، وبالتدريج كل مايشتمل عليه الحقل وماله من علاقة به ويحيط به: مزرعة، أو قرية، أو مدينة، وعلى الأخص المدينة الواقعة في السهل ذاته، وفي الوادي . ولكن اليمينية القديمة - في تقديري - تعرف في مقابل الجعزية معنى محدداً مع التأكيد على المستوطنات المحصنة . وتستخدم من أجل الدلالة على الأراضي المزروعة، مسميات دقيقة في تدرجها: س ي ر = أرض زراعية، (ملحقة بمدينة)، ذهب = أرض غرينية، ع ب ر = أرض مدرجة للزراعة، ح ق ل = حقل، أرض = أرض (فلاحة)، م ش ي م ت = أرض زراعية، م ح م ي ت = أرض تسقى من مسناة وهي التي تعرف اليوم في الحج باسم سانية وتجمع علي سواني، ع ش ق = بناء مصطبات زراعية، م ه وك ب = مزرعة مغرس . . . إلخ . ومنها لفظتان سنحللهما فيما يلي .

اللغة العربية الشمالية تعرف لفظة (هجر) ضمن الألفاظ الجغرافية الاختصاصية، وذلك في الدلالات المرتبطة بأسماء الأعلام، وكذلك في أسماء العلم المركبة والتي تعرف بالإضافة^(٣٣) وقد اشتق منها فعل بمعنى (هاجر) والهجرة هجرة البدو من البادية إلى المدن . والمهاجرة مثل المقاتلة، هم الذين هاجروا إلى المعسكرات الكبيرة التي منها كانت تنطلق الحرب . لأن الهجرة تعني . . . الهجرة (بالمرأة والولد) إلى مركز سياسي عسكري لتلقي المهمات . ولم يكن حق المواطنة يعطى للمسلم كاملاً إلا في العواصم ومدن الجند . أما البدو الذين بقوا سلبين في وطنهم ومع قطيعهم فإنهم لم يعتبروا في عداد المواطنين الذين يتمتعون بالحقوق الكاملة.^(٣٤)

وكانت المدينة هي دار الهجرة ودار الإسلام الأساسية، وإلى هناك كان توجه المسلمين العاملين في البداية. ثم ظهرت بعد ذلك العواصم المحلية، واختيرت في سورية مدن قديمة كانت قائمة من قبل، وفي الأماكن الأخرى أقيمت مستوطنات عسكرية، مثل القسطنطينية في مصر، والقبرص في شمال إفريقيا، والبصرة والكوفة.^(٣٥) من هنا يتبين لنا أن اللفظة التي تستخدمها العربية الشمالية بمعنى الهجرة إلى المدن والتنظيمات المدنية للمهاجرين مشتقة من (هجر) المدينة. والآن في حال استخدام كلمة هجر في الشمال اسماً ذا دلالة، فإن العصر الإسلامي عرف استخدامها لألفاظ أخرى حلت محلها مثل: المدينة، بلد، قصبة. إذن لا يمكن اعتبار العبارة (مهاجرة، هجرة) إلا عبارة استخدمت قبل الإسلام حتى لو كانت غير متداولة في الشمال وليست أصيلة هناك، فإنها قدمت من جنوب الجزيرة الأقدم حضارة.

إلى جانب ما يشار إليه في النص من أشياء تجمع في كلمة أرض يرد في عبارات الدعاء، التي تأتي في نهاية النقش عادة (كرمات العنب في (ع ش ق ت)، المساحات المزروعة، وهذا يعني إذن (كروم العنب). ونحن نعرف لهذه العبارة ما يرد فيها وهو (م ه و ك ب) التي تحمل معنى (نباتات الأفوايه - ط ي ب، ص ر ف-) ويتصل بهما صيغ فعلية تدل على معنى (عمل) في الحقل أو البناء سواء بسواء. وإلى جانب ذلك اكتسبت معنى عقلانياً بحيث أصبحت تعني (اهتمام الإله بالإنسان) وغالباً ما نجد في العربية الفصحى معاني ثانوية وعامة يصعب من خلالها استخلاص التطور الدلالي على أية صورة من الصور. أما الآرامية فإنها تؤكد معنى (صعوبة أمر ما والشقاء الذي يعانیه المرء) للفظ (ع ش ق) وهو ما اتصل به العبرية إلى معنى (الاقتتال، الاختصام)، الذي يعبر عن التحمس الشديد من أجل شيء ما والذي لا بد أن ينتهي حسب الطبيعة البشرية إلى نهاية تظهر فيه الانفعالات المتبادلة.

ولو أراد المرء أن يصدر حكمه بناء على ما نعرفه من أنماط العمل وأشكال النشاط الاقتصادي في الشرق القديم وبلاد اليمن فإنه لن يخطئ عموماً إذا قبل بالتوضيح الذي ينص على أن معنى اللفظين (عشق، وكب) يخص العمل الذي

يقوم به السادة. وإننا لنرى لفظة (مبنى) التي تعني (البناء، المبنى) مرتبطة دائماً بعبارة (عشق) التي تسبقها في الوثائق الخاصة بالأبنية: (.../ت ق دم/و ح ر ج/و س هـ ل ك/ك ل/ع ش ق/و م ب ن ي/م ح ف د ن) RES3552/2-3 وفي الإنتاج الزراعي: (.../و ع ش ق/و س ق ح م/و س ع هـ دم/ظ ب ر ت س) RES3854/5/7. وقد احتفظ المعجميون القدماء بذكرى المعنى (القريب) إذ يقولون: (عشق) المصلحون غروس الرياحين... ومفردها (عشيق أو عشوق). وفي مجال آخر أعلى شأنًا تستخدم اللفظة في الوثيقة RES3688-9/12-13 حيث ترد (في صيغة التعدية) (و ت ق دم/و ش ع س ق/أ ش ط ر/ذ ن/ب ر ت ن/ن ب ط ع م) بمعنى العمل في المحفوظات الرسمية، والاهتمام بإصدار المراسيم وما يشابهها.

وكذلك سارت لفظة (وكب: مهوكب) بصورة متوازية في تطور معناها كما ترد في الوثيقة CIH308/5 (و ك ل/م هـ و ك ب هـ م/و و ك ل/م س ق ي هـ م و) حيث تعني بالتأكيد (مزرعة، مغرس) وهنا لابد من ذكر ماسمعه لندبرج Landberg في حضرموت (ياكب) -وهي صيغة الفعل المضارع- حيث يقول: توضع الغرسة في الأرض بعد إعداد الحفر بالوكبة.^(٣٦) وربما نستخلص من هذا العمل البدائي المعنى المقصود لعملية العناية الفائقة للمزارع -الخاصة بالبخور-، وفي مجال آخر يختلف تماماً ترد اللفظة في الوثيقة CIH609/4 التي وصفنا خطوطها العامة، حيث ترد صيغة (يهوكبن) التي تشير إلى مسؤولية شيخ العشيرة في تنفيذ العقود من قبل المستوطنين وذلك بناء على تعميده للوثيقة بتوقيعه (.../و أ ل/ب ن ك ل) (أ س ط ر/و ش أ م ت/.../ب هـ م و/ي هـ و ك ب ن/ك ت ع ل م) (ي ت ع ل م ن/و س ت س أ ل ن). وقريب من هذا، من دون أن يكون هناك تطابق، ترد عبارة (س ع ش ق) في الوثيقة RES3688/12 (.../و ت ق دم/و س ع ش ق/أ س ط ر/ذ ن/ب ر ت ن/ن ب ط ع م/ب ن/أ ل س م ع)، فهنا يدور العمل في مجال التوثيق الحكومي الصرف، ذلك أن مهمة الموقع كانت تنحصر في توثيق العقود فقط، دون أية التزامات أخرى أثناء التنفيذ. وهكذا يجد المرء بسهولة الصلة بمعنى (الوصول إلى الشيء ببذل الجهود المضنية من قبل السيد أو خدام الملك) كما في الوثيقة

CIH314/11) (/... / ووكب و/بهي ت/ صحت ن)، وكذلك بمعنى (عناية الرب بالإنسان) CIH398/11. وقد احتفظت اللغة العربية الشمالية إلى جانب المعنى المذكور هنا بالدلالة العامة (اهتم بحماس شديد)، وكذلك اللغة الجعزية (بئي وكيو توما) مع النفي ...

كانت الأعمال كلها من شأن غير الأحرار والتابعين، كما مر بنا، ولكن بتطور نظام المجتمع نشأت الحاجات الإدارية ذات الجوانب المختلفة، وما يتبعها من مؤسسات محددة، والتي كانت تذكر بعد الأعمال البدائية ذات المستوى المتدني. وهكذا أخذت الكلمة تدرج في الارتفاع درجة بعد أخرى في فم المتكلم من حيث القيمة وتتسلسل إلى مرتبة العمل الذي يتمتع باحترام أكثر كلما كان مركز الموظف عالياً. وقد احتفظت لفظة (ناجش) العبرية، وبالأحرى صيغة اسم الفاعل منها بالمعنى البدوي (اصطاد الحيوانات البرية، طارد الحيوانات ودفعها أمامه) سفر أيوب: الأصحاح ٣٩ (٧). ولكن اللفظة ذاتها تعبر في مكان آخر عن جابي الجزية والضرائب، وذلك في شكل الحيوانات التي يسوقها بعيداً كضريبة من المواشي، ثم عمم ذلك فيما بعد على الذهب والفضة، كما في سفر الملوك الثاني: الأصحاح ٣٣ (٣٥). وقد دعي المسؤول عن أعمال السخرة باللفظة نفسها، سفر الخروج: الأصحاح ٣ (٧) والأصحاح ٥ (١٠) وكذلك طريقته في معاملة المكلفين بالسخرة، سفر أشعياء: الأصحاح ٥٨ (٣). وهكذا يتحول في النهاية إلى مستبد، وكذلك إلى حاكم للشعب ومسيطر عليه، سفر أشعياء: الأصحاح ٣ (١٢)، فملك الحبشة (نجش، نجاشي) هو ابن عم سايس الحيوانات من حيث المعنى، وهنا يظهر مدى ارتفاع المنزلة الاجتماعية الكبير.

وهكذا يمكن القول: إن الظروف والتغيرات الاجتماعية الثقافية هي التي تؤثر في التطور الدلالي، حيث تتجذر شجرة النسب في الأرض الزراعية وتقود من العمل في الأرض ووجوب العمل فيها إلى الالتزام بالعمل، الشعور بالواجب، العلاقة في العمل، الإدارة، الوظيفة.

ترى هل تحمل لفظة (ع ش ق) في اللغة اليمنية القديمة مثل (وك ب) أيضاً
معنى قيام الفلاح بعملية خاصة، كعملية البذار، وتشمل كل المعاني المعروفة
لدينا؟ على كل حال، لا أعتقد أن المرء يستطيع أن يعيد هذا المعنى أو سواه إلى معنى
(الحب الجارف وبكل الجوارح) في اللغة العربية الشمالية التي احتفظت به في لفظة
(عشق) دون غيره.

المختصرات

استخدمت المختصرات التالية لبعض المصادر والدوريات التي ذكرت في

البحث:

BASOR = Bulletin of the American Schools of Oriental Research.

CB = Cahiers de Byrsa.

CIH = Corpus Inscriptionum Semiticarum.

GL = مجموعة نقوش جلازر

IR = مجموعة نقوش مطهر الإيراني

Ja = مجموعة نقوش جام

JA = Journal Asiatique.

RAA = Revue d'Assyriologie et d'Archeologie Orientale.

RES = Repertoire d'Epigraphie Semitique

RY= مجموعة نقوش ج. ريكرمانز

الحواشي

(1) Cantineau, J.: Nouvelles inscriptions sud- Arabique de Musee Borely a Marseill, RAA 14(1927) p.135ff.

(2) Mordtmann, J.H. und Mittwoch, E.: Bemerkungen zu altsudarabischen Inschriften, Orientalia, N.S.3(1934) p.42ff.

(3) Beeston, A.F.L.: Sabaeen Inscriptions, Oxford(1937) p.85.

(4) Jamme, A.: Les antiquites sudarabes du Musee Borely a Marseille, C B 8 (1958) p.149ff.pl.x1/2,x1.

(٥) سَلِيَّة: قرية تقع على سفح جبل شخب عمار في ناحية النادرة، لمزيد من التفاصيل عن هذا الموقع انظر:

Al- sheiba, A.Hassan: Die Ortsnamen in den altsud- arabischen Inschrifte, Archaeologische Berichte aus dem Yemen (1987) p.34.

(٦) انظر دراستنا: أوضاع التابعين في اليمن القديم، مجلة دراسات يمنية، العدد ٤٥، لسنة ٩٢، ص ٧٩-٩٠

(7) Rhodakanakis, N.: Katabanische Texte zur Bodenwirtschaft I, wien (1919) p.21ff., 65ff., II(1922) p.72,

Muller, w.w.: Warzeln Mediae und Tertiae Y/W im Altsudarabischen, Tubingen (1962) p.54.

(٨) لم تكن كل القبائل ترتبط بمدينة ما. فقبائل سمعي، خولان وردمان مثلاً لم يرد في النصوص ما يشير إلى ارتباطهم بمدينة، بل إن بعض هذه القبائل كان لها ملكها الخاص كما في CIH37/1-2 الذي جاء فيه (يهعان ذبيان بن يسمع إيل بن سمه كرب ملك سمعي). بل إن هذه القبيلة (سمعي) التي كانت في الأصل تعظم إله الهمدانين (تألب) نجدها في مرحلة لاحقة تحت رعاية السبئيين، ثم نراهم مقسمون إلى أثلاث ثلاثة: خولان، حملان، وهجر، أي أنهم وزعوا على مناطق ثلاثة.

(9) Rhodakanakis, N.: Studien zur Lexikographie und Grammatik des Altsudarabischen II, wien (1917) p.173.

(١٠) انظر أيضاً النقوش: CIH102/4 CIH73/2.

(١١) انظر أيضاً النقوش: Ja578/12,32, RY533/17 CIH282/2 CIH506/5
ثم قارن النص القتباني (وربع/ب ي ت/ب ن/ع ج
ل م/ب هـ ج ر ن/خ د ص م).

(12) Rhodokanakis,N.: Altsabaische Texte I, Wien (1927) p.30
Anm.1, p.54ff.

(١٣) المصدر نفسه ص ١٠٤.

(14) Hartmaann,M.: Der Islamische Orient, Bd.II. die Arabische Frage,
mit einem Versuche der Archaologie Yemens, Leipzig (1909) p.229.
ثم قارن:

Rhodokanakis,N.: Katabanische Texte..II, p.69 Anm.5.

(15) Rhodokanakis,N.: ibidem,I,P.72ff., Altsabaische Texte I,
p.103ff.

(16) Rostovtzeff,M.: Geschichte der Alten Welt,I,Darmstadt (1970)
p.257.

(١٧) الهمداني: الإكليل، ج ٨، ص ١٥٨ (تحقيق الأكيوع).

(18) Jirku, A.: Die Welt der Bibel. fünf Jahrtausende in Palastina -
Syrien (Grosse Kulturen der Fruhzzeit) Stuttgart 5. Auf. (1965),
S.130. Wright, G.: Biblische Archaologie, Gottingen (1958),
S.145.

(19) Halevy, J.: Repport sur un Mission archeologique dans le Yemen,
JA, 6 Serie xix (1872) p.66ff.

(20) Garbini, G.: Haram: Una citta minea alleata di Saba, Semitica 23
تارن: (1973) p.128f.

(21) Ebenda p.67f.72,95.

(22) Ibidem p.80.

(23) Muller, D.H. und Rhodokanakis, N.: Eduard. Glaser Reise nach
Marib, Wien (1913), p.48ff., p.73.

(24) Bury, G.W.: The Land of Uz, London (1911) p.55.

(25)

انظر بالنسبة لمأرب:

Wissmann, H.von: Die Mauer der Sabaerhauptstadt Marib, Leiden (1976) p.3.

- Geographische Grundlage und Fruhzeit der Geschite Sudarabien, Saeculum 4(1953), p.87f.f.

Sprenger, A.: Die alte Geographie Arabiens (Neudruck) Amsterdam (1963), p.331.

وبالنسبة لمتنع:

Deo, B.: Sudarabien, Bergisch Gladbach (1970), p.220. Grohmann, A.: Arabien, Munchen (1963), p.132ff. Wissmann, H.von: Al-Barira in Girdan im Vergleich mit anderen stadtfestungen Altsudarabiens, Le Museon 75 (1962); p.193, Anm(b).

Albright, W.f.: The Chronology of Ancient South Arabia in the light of the first Campain of Excavation in Qataban, BASOR119 (1950), p.5f.f.

Muller, W.W.: Timna und Qataban, Jemen Report 9 (1978), p.14f.f.

(٢٦) الهمداني، الإكليل، ج٨، تحقيق الأكوع، ص ١٥٠-١٥١.

(٢٧) الهمداني: صفة جزيرة العرب، تحقيق الأكوع، ص ٣٦٥.

(٢٨) نشوان بن سعيد الحميري: منتخبات في أخبار اليمن من كتاب: شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، وقد اعتنى بنسخها وتصحيحها عظيم الدين أحمد، ليدن (١٩١٦) ص ٢٧.

(٢٩) انظر د. عبد الله حسن الشيبه: الهجر = المدينة في اليمن القديم، مجلة دراسات يمنية، العدد ٤٠ (١٩٩٠م) ص ٢٨، وقارن الهمداني: الصفة، ص ١٧٠.

(٣٠) الهمداني: الإكليل، ج٨، ص ٨٢-٨٣.

(31) Hofner, M.: Inschriften aus Sirwah Hawlan (II.teil), Sammlung E. Glaser XII, Wien (1976), p.8,.

(٣٢) انظر المعجم الأكادي:

Von Sodin, W.: Akkadisches Handwörterbuch, Wiesbadin (1959).

(٣٣) انظر الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص ١٧٠.

(٣٤) فقد ورد حديث عن النبي ﷺ في أمر أعراب المسلمين أنه ليس لهم في الفياء والغنيمة شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فمن لم يجاهد ولم يك فقيراً أو شغل بتجارة أو عمل غير ذلك فلا شيء له في الغنيمة والفياء، إلا أن تصيبه حاجة فيدخل مع أهل الحاجة. (انظر كتاب الخراج ليحيى بن آدم: ص ٥٩، ٥٠).

(٣٥) فلهوزن، يوليوس: تاريخ الدولة العربية، من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية، القاهرة (١٩٦٨) ص ٢٥، وقارن دراستنا: الهجر = المدينة في اليمن القديم، مجلة دراسات يمنية، العدد ٤٠ (١٩٩٠)، ص ٢٩ وما بعدها.

(36) Londberg, Le Comte de Etude sur les dialectes de l'Arabie Meridionale: vol.I: Hadramout (1901) p.298.